



مدارس علم النفس المعاصرة

تأليف العمدة : روبرت ودورث

ترجمة : الأستاذ كمال دسوقي

نشرته : دار المعارف بصرته ١٩٥٠

الكتاب الذي أقدمه اليوم لقراء العربية من وضع العلامة روبرت ودورث Robert Woodworth الذي ولد في بلخرتون من أعمال ماساتشوستس Massachusetts بأمریکا في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٦٩ . وهو يحتوي على طائفة من المحاضرات ألقاها المؤلف سنوات عدة ، إبان اشتغاله بالتدريس في جامعة كولومبيا عنوانها « نظرة في علم النفس المعاصر » ونشرت بنيويورك لأول مرة سنة ١٩٣١ تحت هذا العنوان « مدارس علم النفس

والسرحية فكاهية ، وهي كذلك بجهود الممثلين وحركاتهم أكثر مما هي بالحوار ، فأنت تحس في المواقف المختلفة بالمادة « الخمام » التي لم يصنع منها ما تصلح له من الفكاهة ، فالحوار ضعيف فأز من هذه الناحية وإن كان المثلون يبتون فيه شيئاً من الحرارة ، وكان يخيل إلى أن الممثل الطريف فؤاد شفيق يعانى ضيق الجزالدى وضع فيه فيحاول أن يوسعه ولكنه يطبق عليه . أما إخراج الرواية فهو الذى كما عظمها لها وجلها روحاً ، من حيث تمسيق المناظر وتوزيع الأضواء وتحريك الممثلين والممثلات ، فقد بدت المناظر موافقة رائمة معبرة ، فالشاهد يرسل بعصره إلى المسرح في المشهد الأول حيث بهو الاستقبال في القصر ومن ورائه حديقة غناء ، فلا يخالجه شك في حقيقتها وما هي بطبيعة الحال إلا رسوم وأضواء ، ومن المناظر المعجبية منظر الشرفة تبدو منها حمرة الشفق تارة ويرسل إليها القمر أشمته تارة أخرى ، والابداع الذى في تهيئة المنظر اللوطف وملاءمته لأحوال من يتحركون فيه والاستمانة به على التمييز وإبراز المقصود منه . وللأستاذ زكى طلبات طريقة لطيفة في تقديم شخصيات ثانوية صغيرة ينمكس

المعاصرة .

ويحاول المؤلف في مستهل كتابه أن يحدد موضوعه وأن يرسم خطاطه الرئيسية ، ويقول في مقدمته « ويحاول هذا الكتاب

أن يلقى نظرة موضوعية على علم النفس المعاصر ، بالقدر الذى يتعلق بمدارسه ، وما تضىء به للانسانية من أظلام . وهو لا يريد أن يقدم آراء المؤلف الخاصة في أية صورة مذهبية ، وإن لم يمتنع عن شرح شخصية هنا وهناك . ثم هو لا يحدف إلى نقد شأنا المدارس المختلفة ، ولا إلى تقدير هام حتى يتأدى بالقارى . بل واحدة منها ويعد به عن الأخرى ، وإزاء غرضه أن يقدم صورة لهذه المدارس لا محاباة فيها ، حتى ينهيا للقارى . أن يقف على المالم الرئيسية لكل منها في غير توسع مريبك ، ولكن بالقدر من التجسيم الذى يعطى لونا لهذه الصورة . »

وهذه المدارس المعاصرة التي تتوزع ميدان علم النفس فيما بينها ، إن دلت على شيء ، فملى حداثة هذا العلم ، وعلى أن موضوعه لم يمتين ، ومنهجه لم يتضح ، وغايته لم تتحدد بعد . ولا بد أن تمر عشرات السنين قبل أن يتأدى الصراع القائم بينها إلى موضوع لعلم النفس محدود ، ومنهج واضح ، وغاية مملومة ،

علمها جو الرواية ، فالجو هنا كله راية وفاق ، وهذا الغلام (رضوان) الذى يقول أبوه إنه ملاك طاهر والذى يقضى ويطرق أمام السيدات ، هو أيضا يسير في ركاب الرياه ، بل يجسمه ، إذ هو لا يلبث أن يساير على الخادمة اللوب ويهرب معها .

وقد أدى المثلون والممثلات أدوارهم بجد وإخلاص ، ووفق أكثرهم ، فكان حسين رياض بارعا في تصور الشخصية التي تدور عليها المسرحية وقد اندمج فيها كل الاندماج . وكان أحمد علام موفقا في تمثيل الرجل الحازم الحذر كما كان ظريفا في إشاراته ونبرات صوته ذات المعنى الذى يلوح إليه ، ولكنه كان قارا أمام الفتاة التي تحبه ويحبها . أما عمر الحريري ، وهو من خريجي معهد التمثيل ، فقد أثبت أنه دم جديد نابض . وكانت زينب صدق طبيعية مجيدة في تمثيلها وإن كان الدور غير ملائم لها ، وهو دور امرأة تخرى شابا وتدفعه إلى محاولة اقتناصها ، وقد أمكن أن تبدو رشيقه خفيفة الحركة ولكن الموت وظلال الشخصية كانت بعيدة عما يتطلبه الدور من بعض الصبا والشباب .

عباس مختار

حيث منهجه ومستواه العلمي أكثر منها على نظريته . فبينما قنع عالم النفس السابق بأن يستعين على البرهنة بالذاكرة وخبرته الشخصية الشاملة مع ما فيها من عدم الثقة ، إذا بلم النفس الجديد يصير على أن تقوم حقائقه على ملاحظات مسجلة ومعددة .

ويتابع المؤلف حديثه عن المؤثرات الخارجية المختلفة ، التي استهدف لها علمنا الناشئ . فيمرض لكل من البيولوجيا السامة - وعلى الخصوص نظرية التطور Theory of Evolution - وما كان لها من ثورة على علم النفس القديم ؛ ولعلم الطب العقلي psychiatry وما كان من انقسام أطبائه إلى مـسـكـرين : نفسيين psychists يبحثون عن أسباب المرض في العقل ، وجسميين somatists يرحمونها إلى اضطرابات في المخ . ثم يبين ما كان من جانب علماء النفس من محاولات جديدة - كرد فعل لهذه المؤثرات الخارجية - لفصل هذا العلم عن الفلسفة ، وعن غيره من العلوم التي لها به صلة قريبة أو بعيدة .

وقد كان علماء النفس في أواخر هذا القرن يعرفون علمهم بأنه علم الشعور science of consciousness ، وبالتالي كانوا يتخذون الاستبطان منهجاً لهم . ثم جاء القرن العشرون الذي حاول المشتغلين فيه عـائـن علم النفس أن يثوروا على هذا « النظام القائم » في القرن الماضي متأمسين ما فيه من مثالب وهنات ؛ « فتمزقت بينهم أرباباً سيكولوجيا القرن التاسع عشر القديمة المسكينة عرقاً لطيفاً ، ونشأت مدارس تمارضت مع بعضها البعض تماماً كما تمارضت مع علم النفس القديم » ونجم عن ذلك فترة نشيطة جداً ذات نظام لم يقرر بعد « ص ٥٧ وحاولت كل من هذه المدارس أن تحدد موضوع علم النفس ، وأن تتخذ لنفسها منهجاً خاصاً يتأدى بها إلى نتائج حقيقية حاسمة . وهي قد اجتمعت - وإن اختلفت في الوسيلة - على إعلان الثورة على هذا « النظام القائم » الذي يصور علم النفس باعتباره « دراسة للشعور » متخذاً « الاستبطان » منهجاً يستخذه في دراسة الانسان .

فلم النفس كما يراه السلوكي مثلاً « هوشمية تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطبيعي . ومدفه النظري هو تنبؤ السلوك وضبطه . وليس الاستبطان جزءاً رئيسياً من مناهجه ، ولا القيمة العلمية لحقائقه تقوم على استمدادها لأن نمبر عن نفسها بألفاظ الشعور ...

يتفرغ العلماء بعد الوقوف عليها إلى تناول موضوعات جزئية لها صبغة موضوعية داخل هذا الاطار الذي تكون مماله قد ونحت كما هي الحال في العلوم الطبيعية .

والسكتاب يقع في سبعة فصول :

الأول : ما وراء خلافتنا الجارية

الثاني : سيكولوجيا الاستبطان والدراسة الوجودية .

الثالث : السلوكية .

الرابع : سيكولوجيا الحشطات أو الشكائية :

الخامس : التحليل النفسي والمدارس الملحقة .

السادس : مذهب القصد أو علم النفس المورري .

السابع . وسط الطريق

ويستهل المؤلف كتابه بالحديث عما يسميه « النظام القائم » Established order الذي كان يسمى وقت انتشاره وذيوعه ، علم النفس الحديث ، تميزا له عن سيكولوجيا المصور الوسطى وسيكولوجيا ديكرت وهوبز وليينتس وغيرهم . وهذا « النظام القائم » ارتباطي في أساسه . والارتباطيون في علم النفس هم الذين حاولوا في القرن الثامن عشر ، ومستهل القرن التاسع عشر أن يردوا جميع العمليات العقلية إلى عممية الارتباط Associatio أو الداعي وحدها ، بدلا من ردها إلى أساس عام من الحركة كما فعل هوبز مثلا ، حينما فسّر هذه العمليات تفسيراً « جعلها في صف واحد مع العمليات الفيزيقية ... فالحركة الخارجية تقع على أعضاء الحس وتتصل بالأعصاب والمخ والقلب ؛ والحركة الداخلية - عند ما تبدأ - تستمر بحكم القصور الذاتي inertia على هيئة ذكريات وأفكار » ص ٥٦

ويمرض المؤلف لما كان لعلمى الكيمياء ، والفيزيولوجيا من تأثير كبير على مناهج علم النفس في القرن التاسع عشر ، بعد أن عرض علينا ما كان لعلم الفيزيقية من أثر واضح عليها فالكيمياء أوحى بفكرة « كيمياء العقل » mental chemistry ، التي تحمل مركبات العقل ، كما تحمل الكيمياء المادة إلى عناصرها الأولية ويمد إرغاماً لمسمى التحليل النفسي فيما بعد . أما الفيزيولوجيا فقد أوحى بمكرة « التجريب » في علم النفس ، فكان - في الأداول معمل علم النفس التجريبي ، أنشاء فنت في ايتسك سنة ١٨٧٩ وكانت ثورة السيكولوجيا التجريبية على النفس السابق عليها من

على الاطلاق ، منهج التحليل ، سواء منه ما اختص بالسلوك أو الخبرة . وقد رفضت هذه المدرسة كذلك فكرة الصافي باعتبارها فسكرة مضللة ، كما رفضت الاحساسات ، وعلى الأقل الأولية منها على أنها عناصر للخبرة التي سبق لها أن رفضتها هي الأخرى .

تلك هي الخطوط الرئيسية لمدارس علم النفس المعاصرة ، التي عرض لها راددورث في كتابه الذي لم يشأ رؤاه أن يقف به عندها ، دون أن يمرض علينا شذرات من مذاهب علماء ميرز في ميدان علم النفس ، ولكنهم مع ذلك لا ينتمون إلى هذه المدرسة أو تلك .

في بريطانيا : نجد الأستاذ سيرمن بجامعة لندن الذي ولد سنة ١٨٦٣ ، والذي احتدم الجدل بينه وبين ثوراندنيك حول طبيعة الذكاء . كما نجد الدكتور . ش . ص . مايرز بلندن وكان مديراً لأول معمل سيكلوجي في بريطانيا - معمل كبرديج ثم عين مديراً لمعهد علم النفس الصناعي القوي .

وفي ألمانيا : نجد الأستاذ فليكس كريجر Filix Kreuger « ولد سنة ١٨٧٤ » ، الذي يعارض الجشطلت « فيرين أن الشكل الذي ندركه في أية لحظة هو ذاته متضمن في شعور كلي ؛ فالشعور عنده حقيقة أكثر جوهرية من الصورة الخلفية » . كما نجد الأستاذ . ا . اشبرانجر ESpranger بجامعة برلين (ولد سنة ١٨٨٢) . ومن تلاميذ ميلر Muller اثنتان هما فينش DaYid Katz الأستاذ في ماربورج ، ودافيد كاتس الأستاذ في رستوك . كما يذكر المؤلف الأستاذ وليم استرن wStern تلميذ ابنجهاوس .

وفي سويسرا : نجد الأستاذ كلاپارد Claparède الذي أنشأ معهد روسو لدراسة الأطفال .
وفي إيطاليا نجد Benussi الأستاذ السابق بجامعة بادو . كما نجد الأستاذ S de sanctis المشهور بتخصصه في الأمراض العصبية والنفسية ، والأستاذ كيسوا الذي كان تلميذاً ، قدما لفتت . والأستاذ Fikesow المعروف بقياسه المجهود ودراساته للتعب .

ولعله لا بد قد حان الوقت الذي يطرح فيه علم النفس كل إشارة إلى الشمور . إذ لم تعد به حاجة بعد إلى أن يندمج نفسه في حسابان أنه يجمل الحالات العقلية موضوعاً للاحفظته ، ص ١٤٠

وبينما السلوكيون يحاولون إبعاد الشمور عن ميدان علم النفس ويقصرون دراساتهم على السلوك وحده ، ترى فريقاً آخر من العلماء ، لم تنشأ مدرستهم عن علم النفس ذاته ، وإنما نشأت عن أبحاث الطب العقلي psychiatry ؛ تلك هي مدرسة التحليل النفسي ، التي رأيناها في « لغة فرويد » ، التي أثارها راددورث جازاً واتخذت ما يجرى في اللاشعور ، من ذكريات وأحلام ، موضوعاً لدراساتها بوسائلها الخاصة .

ولقد حاولت مدرسة أخرى جديدة هي مدرسة القصد purposivist School وعلى رأسها مكديوجل ، أن تتخذ لعلم النفس موضوعاً من الدوافع الإنسانية - من غرائز وعادات وانفعالات وأفعال منعكسة ناتجة بذلك على النزعة العقلية التي كانت تسيطر على هذا العلم وعلى الإيمان بأن منهج الاستبطان هو وحده المنهج الصحيح في علم النفس .

وليس معنى هذا أن علماء النفس القائلين بالشمور موضوعاً والاستبطان منهجاً لعلم النفس ، قد قنعوا بالثورات المختلفة المتلاحقة من جانب هذه المدارس على مذهبهم ، وإنما يمدلون فيه بالقدر الذي يظهرهم وسط الميدان وكأنهم أصحاب مدرسة جديدة ؛ فلي جانب إيمانهم بالاستبطان قالوا بأن علم النفس هو علم خبرة الفرد the science of Individuals experience مهمته « وصف هذه الخبرات وتحليلها ، ومقارنتها ، وتصنيفها ، وترتيبها في نظام دقيق . فكانت الخبرات تدرس وكأنها موجودات Existences وبمباراة أخرى ، أن علم النفس الوجودي كان يجد مقمة في الفرد كصاحب EXPERIENCER ، وليس كقائم الفعل performer ؛ ص ٧٧ وتمت مدرسة أخرى هي مدرسة الجشطلت Gestott أو مدرسة الصيغة Configuration التي تارت على المذهب الارتباطي من حيث عنايته ، على الخصوص ، بالجانب العقلي من الحياة ، ومن حيث أنه « أخذ بالاحساسات البسيطة على أنها العمليات الأولية ، التي منها تتركب الخبرات والأفكار المركبة » ص ١٧٤ . كما أن هذه المدرسة - على العكس من السلوكية التي نادى بتحليل السلوك لا الخبرة - قد اطرحت ،